11 العودة من شفير الهاوية

لم يكن ما سمعه أوثا آلتون هافنز هو صوت الرب، وإنما طائرة «فنتورا» بقيادة الملازم ولبور سي. غوين Wilbur C. Gwinn الذي كان في مهمة دورية روتينية تحت قيادة جزر الماريانا التابعة لنائب الأميرال موراي Murray. لم يكن غوين يتوقع يوماً لا ينسى، بل كانت تنطوي مهمته على البحث عن سفن وغواصات يابانية تزود القوات المعزولة على جزر بالاو بالإمدادات، ولكن لم يستطع العثور على واحدة إلاَّ نادراً، إذ لم يتبق لدى اليابانيين سوى قلة من السفن من أي نوع لإرسالها إلى هذه المنطقة الخلفية من الحرب، رغم وجود بقعة زيت كبيرة كانت توهم بوجود غواصة ـ إذ صادف أن كان غوين يحلق على ارتفاع منخفض بما فيه الكفاية ويركز عينيه على الماء. والآن، إذ كان يحدق إلى أسفل من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، كان السطح الزجاجي وغير المتموج يمتد من الأفق بتناسق لا شائبة فيه. كما أن راداره لم يركز على أية أهداف.

كان تصرف غوين المسترخي وعيناه الظريفتان وابتسامته السلسة يخفون هوى عميقاً للإثارة والتحدي. ولد غوين في مزرعة في

غلروي Gilroy بولاية كاليفورنيا والتحق بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس Los Angeles أثناء عمله لدى شركة دوغلاس لصناعة الطائرات Douglas Aircraft حيث كان يشرف على 65 فنياً وهو في التاسعة عشرة من عمره. وعندما نجح في امتحان الطيران البحري في سنة 1943، عين كضابط صف وعمل طيار اختبار قبل إرساله إلى بليليو Peleliu في جزيرة بالاو بصفته قائد طائرة دورية في السرب VPB - 152 ـ وكان أدنى الطيارين مرتبة في الوحدة.

وبعد طيران لمدة ألف ساعة، كان غوين يضع شارة ملازم، ولكنه كان يتمنى أحياناً العودة للقيام بتلك الانقضاضات الخطرة كطيار اختبار. فالإثارة لا تسبب الموت فحسب وإنما تسلب الموت أيضاً. أما الآن فلم يكن يؤدي أيّاً منها.

في جلسة الإيجاز في ذلك الصباح، أخبر الطيارون عن جميع السفن التي كانت في البحر في قطاعه. كانت هناك فقط بعض القوافل الأمريكية المحمية جيداً. ولم يرد ذكر للطراد إنديانابولس. كانت قيادة وحدة البحث والاستطلاع في بليليو التي يتبع لها السرب - VPB 152 تعرف أن السفينة كانت مبحرة ولكن لم ير داعياً لإخبار غوين وقباطنة الدوريات الأخرى. فقد كان لدى الطيارين ما يكفي للقيام به دون إرهاقهم بتفاصيل غير جوهرية عن سفن كبيرة سريعة منفردة تستطيع الاهتمام بنفسها. وفي واقع الأمر، لم يسمع غوين أبداً عن أي طراد لم يكن يبحر بدون مرافقة مدمرات.

كما لم يخبر أحد غوين بأن طياراً من سلاح طيران الجيش، هو

الكابتن رتشارد ج. لو فرانسيس Richard G. Le Francis قد شاهد «معركة بحرية» فوق هذه المنطقة في الصباح الباكر من 31 تموز / يوليو، عندما كان يطير بطائرته طراز C - 54 وهي تتحرك متثاقلة من مانيلا إلى غوام. أخبر لو فرانسيس رؤساءه عندما هبط في غوام بأنها كانت معركة من الطراز الأول. ألعاب نارية حقيقية. كانت السماء مرصعة بومضات من نور ـ ولم يدرك أن هذه كانت الأسهم الضوئية التي أطلقها الناجون من الطراد إنديانابولس.

أجابه رؤساؤه طالبين منه عدم المبالاة، لأن هذا شأن من شؤون سلاح البحرية، كما أن لدى القوة الجوية التابعة للجيش معاركها الخاصة بها لتحاربها.

في حوالى الساعة 8,15 من صباح الخميس 2 آب / أغسطس، صعد غوين وطاقمه إلى طائرتهم فنتورا للقيام بدورية أخرى في المنطقة، ولكن كانت لديهم مهمة إضافية هذه المرة وهي اختبار هوائي جديد، بدا أنه جهاز تكميلي غير ضروري ولم يتضح أبداً وجود أي شيء مهم للإبلاغ عنه.

تعطل الهوائي حالما غادرت الطائرة الأرض تقريباً بسبب انقصاف الثقل المركب على رأسه. عاد غوين إلى القاعدة وتم تركيب ثقل آخر وانطلقت الطائرة مرة ثانية إلى السماء، وكان مستاءً لتأخره ساعة واحدة عن موعده المحدّد.

وجه غوين الطائرة نحو الشمال تقريباً وبدأ عملية البحث. ثمة

الكثير من الوقت الآن لكي يفكر وهو يحتسي فنجان قهوة بشأن قصر نظر سلاح البحرية الذي اختاره لهذه المهمة. ولكن سرعان ما دوى صوت مشغل الراديو على متن الطائرة، وليام هارتما William Hartman على جهاز الاتصال الداخلي، وحطم استغراقه في التفكير الحالم: لقد انفصل ثقل الهوائي الجديد أيضاً.

يا للهوائي اللعين! نهض غوين وترك مساعده الملازم وارن كولويل Warren Colwell في مقعد القيادة، وترنح إلى مؤخرة الطائرة لمعرفة ما يمكن عمله. انحنى في قسم المؤخرة وحملق من خلال فتحة إطلاق المدافع وهو مثبط العزم. فقد كان السلك، بدون ثقل سيطرة، يترنح في الهواء. ما لم يتمكن طاقمه من إصلاحه، عليه توجيه الطائرة من خلال التقدير المطلق ـ وهي طريقة مرعبة للالتزام بمسار معين.

أمر الميكانيكي جوزيف ك. جونسون Joseph K. Johnson الذي كان منحنياً بجانبه بأن يلف الهوائي ويدخله في الطائرة. لعل تركيب خرطوم مطاطي حول نهاية الهوائي سيحافظ على ثباته.

وفجأة، بينما كان غوين يحملق عبر الفتحة في شريحة من البحر المضاء بنور الشمس، رأى خطاً أسود رفيعاً يتسلل عبر الأمواج.

هتف قائلاً: «يا جو، هل ترى ما أرى؟».

إنها بقعة زيت. غواصة يابانية أخيراً.

هرع غوين إلى قمرة القيادة. وسأل كولويل: «هل رأيت أي شيء في الأسفل؟».

«لا شيء».

كما لم يلتقط الرادار أي شيء. لا بد وأن غواصة قد قامت بعملية غطس خاطف.

أمر غوين من خلال نظام الاتصال الداخلي: «سلحوا قنابل الأعماق! فتحوا أبواب حجيرة القنابل!».

ثم حول الطائرة نحو بقعة الزيت واستعد للهجوم.

لم يكن يوماً هافنز الناجي الوحيد الذي حملق بقلق في السماوات لدى سماعه قعقعة، مثلما فعل معظم الرجال الآخرين المصطفين على طول بقعة الزيت الملتفة. ولكن لم يكن الكثير منهم يثرثرون بجنون وإنما كانوا ببساطة لا مبالين أو في غاية الضعف للتلويح بأذرعهم ولبط الماء مثلما فعلوا من قبل عندما حلقت نحو عشر طائرات أخرى فوق المنطقة.

بالفعل، ولدت رؤية طائرة حالات توتر جديدة في دونالد بلوم. ماذا لو رأى الطيار الناجين وأرسل في طلب المساعدة؟ كانت ساعة يد بلوم التي جاءته هدية تخرج من والدته ووالده قد سقطت في البحر. هل سيسامحه والده قط لو عاد بدونها؟

كان بلوم لا يزال مضطرباً ومرتبكاً من جراء ما تبين أنها مغامرة إبحار فاشلة إلى جزيرة ياب. ولكنه كان في حالة مستقرة بما فيه

الكفاية ليتساءل عن سبب موافقته على ميثاق مع زملائه الثلاثة في الرمث الذي بموجبه يُلْقَىٰ في البحر أي واحد منهم تظهر عليه علامات الجنون. أوشك بلوم أن يكون هو ذلك الشخص حين بدأ يتمتم لنفسه، ولكن لم يتم إنقاذه إلاَّ حين لكمه أحدهم على كفه وأعاده إلى صوابه. يمكن أن يكون في المرة التالية علفاً لأسماك القرش. كما ساعد الهواء بلوم في التشبث بالواقعية بإعادته الرمث إلى مجموعة الملازم ردمين بعد أن ابتعد ما لا يزيد على بضع مئات من الأمتار. وبما أنه أحس بمزيد من الأمان حين أصبح مرة أخرى نكرة يتعذر التعرف عليه، بل جزءاً من المجموعة، خفت حدة توتره ولم يعد عرضة لانتكاسات سلامة العقل. ولكن ها هي هذه الطائرة الآن ـ كيف يمكنه الذهاب إلى منزله ومواجهة والديه؟

وعلى مسافة ما، كان الطبيب هينز يعوم في الماء دون أن تنتابه مثل هذه المخاوف بشأن العودة إلى منزله.

وكما يروي لاحقاً:

> «ثم سمعناها. هدير طائرة. دعا أربعة منا بأن تكون حقيقية وألاَّ تكون آخر حلم ملتوٍ. اقتربت الطائرة وحلقت فوقنا ثم أخذت تصغر وهي تبتعد. أدركت أن النهاية قد دنت. وفجأة، عادت الطائرة بهديرها. كانت فوق رأسي تسف صدر المحيط».

أخذت مئات السيقان التي كانت مشلولة حتى هذه اللحظة تلبط الماء بحركات جنونية، واندفعت صرخات واهنة فوق أمواج الظهيرة الصافية تقول: «إنه يرانا! لقد نجونا».

وفي خضم الصخب البهيج، استطاع بضعة رجال تمييز الصرخة المميتة لرجل في المجموعة قطعت ساقه تقريباً أسنان سمكة قرش شبيهة بالموسى في لحظة الإنقاذ الظاهري.

تمكن بعض الناجين من أن يشاهدوا من على مسافة 150 متراً الأبواب المفتوحة لحجيرات القنابل.

صاح أحد الرجال وهو جذلان: «إنهم سيلقون شيئاً ما. ربما براميل من الماء العذب البارد».

أحس الملازم غوين بالإثارة حين هبطت طائرته فنتورا تجاه بقعة الزيت، ويده ممسكة بذراع القيادة، وشفتاه على وشك إعطاء الأمر بإلقاء القنابل. وعندما هبطت الطائرة إلى مسافة 150 متراً من الطرف الشمالي لبقعة الزيت، كان يهم بإصدار الأمر ولكنه لاحظ فجأة نتوءات سوداء بالغة الصغر موزعة على السطح البراق وسط زخرفة من الزبد.

أمر غوين بواسطة جهاز الاتصال الداخلي عدم إلقاء القنابل: وابتعدت الطائرة مسرعة دون إلحاق أي أذى.

ما هي تلك النتوءات؟ إنها تشبه العقد على حبة خيار... يا إلهي... إنهم بشر! وها هم الآن يلوحون له ويلبطون الماء. هل هم أمريكيون؟ لو كانت هناك سفينة مفقودة، لماذا لم يتم إخباره؟ أو هل يمكن أن يكونوا ناجين من غواصة يابانية؟

حوّل غوين وجهة الطائرة من أجل التحليق مرة أخرى فوق

النتوءات وأخذ يعد الرؤوس بسرعة ـ ثلاثون تقريباً. وكانوا في الماء بدون زوارق نجاة. ارتعش لفكرة احتمال أن يكون قتل عشرات من الأمريكيين لولا مشاهدته تلك النتوءات السوداء في اللحظة الأخيرة. عليه مساعدتهم أيّاً كانوا. حلّق مرة أخرى فوقهم، وفي هذه المرة ألقى طاقمه رمثاً وبراميل ماء وسترات نجاة وطافية صوتية تسمح لهم بإجراء محادثة باتجاه واحد مع الطيار. عليه أن يعرف من هم.

شاهد غوين تلبيطاً عاصفاً، إذ اندفع رجال من مجموعة الطبيب هينز نحو المواد العائمة. لم يتمكن من معرفة أن صفائح الماء قد انفلقت لدى ارتطامها بمياه البحر. وعندما ظلت الطافية الصوتية صامتة، افترض أن الرجال لم يعرفوا كيفية تشغيلها.

أمر مشغّل الراديو على طائرته بإرسال رسالة عاجلة إلى مقر السرب. وفي لحظة واحدة، اعتلت الكلمات الدراماتيكية الأولى موجات الأثير: «شاهدنا 30 من الناجين. وألقينا جهاز إرسال وقارب نجاة». وأوضح في الرسالة إحداثيات موقع الناجين.

ولكن هل ستمر الرسالة؟ لم يصلح غوين الهوائي بعد، ولكن كل ما استطاع فعله هو تحديد تقديري للموقع. وتساءل عن عدد الرجال الذين سيظلون أحياء حتى وصول الغوث.

* * *

على جزيرة بيليليو، أطل أحد البحارة برأسه عبر خيمة وقال: «هناك بعض الطيارين. من الأفضل اللحاق بهم».

كان الملازم روبرت آدريان ماركس Robert Adrian Marks وطاقمه على وشك الاستجابة لنداء تناول الطعام، ولكن إنقاذ الناجين يحتل الأولوية بالطبع على الجوع المتخم.

كان ماركس طيار طائرة برمائية من نوع كاتالينا PBY - SA Catalina تعرف باسم دامبو Dumbo وتعود للسرب VPB - 23. ويتمثل دورها الرئيسي في العثور على الناجين من كوارث السفن والطائرات وإلقاء المؤن لهم إلى حين وصول سفن الإنقاذ إليهم. ولكن كان ماركس ورجال طاقمه ينتظرون مهمة بتكاسل وهم يقلبون صفحات قصة أو يستمعون إلى أسطوانات غلن ميللر Glenn Miller. اتفقوا على أنهم يتمتعون بحياة هانئة ولكنهم تساءلوا عما إذا لم يكن من المفترض لهم خوض حرب.

كان ماركس محامياً شاباً في الثامنة والعشرين من عمره، مديد القامة نحيلاً وذا شارب. على أية حال، أراد أن يعوض عن «فشل» مهمته الأخيرة في 30 تموز / يوليو عندما بحث هو ورجاله دون جدوى عن الناجين من طائرة أسقطت بفعل نيران المدافع. في هذا النوع من العمل، يفقد الرجل جزءاً صغيراً من نفسه إذا عاد إلى قاعدته خاوي الوفاض.

لم يكن ماركس معتاداً على الفشل. فقد ولد في لادوغا Ladoga بولاية إنديانا وتخرج من كلية الحقوق في جامعة إنديانا ولم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره. تزوج ابنة كبير قضاة المحكمة العليا في إنديانا واجتاز امتحان المحاماة في الوقت الذي بدأت فيه الحرب.

وكملازم في احتياطي سلاح البحرية، قاد سفينة تدريب هاجمت اليابانيين في بيرل هاربر وأصبح طياراً في البحرية سنة 1942. كان يهوى المجازفة ـ شريطة أن تكون محسوبة بعناية ـ واكتسب سمعة رجل لا يهاب ويطلب من رجاله أن يكونوا مثله أيضاً. وأي شخص تعوزه الشجاعة كان ينتهي به الأمر في العمل في تنظيف المراحيض.

هرع ماركس الآن إلى مقر القيادة لمعرفة المزيد عن آخر «الطيارين» الذين أسقطت طائراتهم. علم أن العميد جورج أتيبيري Grorge Atteberry، رئيس الملازم غوين في السرب VPB - 152، لم يرسل إلى الضابط المناوب في السرب VPB - 23 نسخة عن رسالة غوين اللاسلكية، وإنما حثّ هذا الضابط هاتفياً على إرسال طائرة في مهمة إنقاذ على الفور. كم عدد الناجين؟ لم يكن ذلك واضحاً من الكلمات المشوشة، ولكن شوهد شخص واحد على الأقل على متن رمث.

كما لم يكن واضحاً لضابط السرب VPB - 23 أن المهمة تستحق الأولوية. فقد أرسلت بالفعل في ذلك اليوم طائرتان من طراز دمبو Dumbo في مهمات إنقاذ، والآن ينبغي استخدام طائرة ماركس الاحتياطية. ولكن ماذا لو وقعت كارثة كبيرة حقاً ولم تكن هناك طائرات لإرسالها؟ حسناً، سيقوم بتلك المجازفة.

حين أهمل أتيبيري الرد على رسالة غوين في زحمة الأحداث، قاد سيارته إلى وحدة طائرات PBY من أجل الحث على اتخاذ إجراء بشأنها. أخبر ماركس أن على الطاقم أن يقلع في أسرع وقت ممكن،

لأن ليس بوسع غوين أن يحوم فوق الناجين سوى لغاية الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وإلاّ لن تكون لديه كمية من الوقود تكفيه للعودة إلى القاعدة. كما يجب عدم حمل الناجين على الاعتقاد بالتخلي عنهم.

أكد ماركس لأتيبيري أنه سيغادر في أقرب وقت ممكن ولكنه أشار إلى أن الطائرة PBY ليست أسرع طائرة في الجو.

في أثناء ذلك، حمل أفراد الطاقم على متن طائرتهم واسمها الرمزي بلايميت 2 - 1250 Playmate غالوناً من الوقود ورماثاً، ومشاعل مظلات، وعلامات صبغية، وعُدداً لحطام السفن. بدا أنهم سيحثون عن رمث واحد ولعل على متنه رجلاً واحداً فحسب. ولكن بدا نوعاً ما وهم يقعقعون في السماء أنهم سينقذون أيضاً جزءاً قليلاً من أنفسهم.

لم يكن الملازم غوين متأكداً من عدد الناجين الواجب إنقاذهم. قرّر اقتفاء أثر بقعة الزيت اعتقاداً منه بأنه قد يكون هناك أكثر من مجموعة الثلاثين شخصاً التي حدّد موقعها بالفعل. طار باتجاه الشمال الشرقي وشاهد مزيداً من النتوءات السوداء، حوالى ثلاثين آخرين. وعندما واصل الطيران، كان البحر مرقطاً بسبعين شخصاً آخرين، ثم آخرين مبعثرين في مجموعات صغيرة وفرادى. كان المجموع يربو على 150 من الناجين. وهكذا، لا يمكن أن تكون غواصة يابانية ـ إذ لا تحمل أي منها مثل هذا العدد من الرجال. في حقيقة الأمر، عرف أن إحصاءه غير تام، إذ لم يستطع الحصول على

تعداد دقيق لجميع الرجال الذين كانوا مكدسين على الرماث الواحد فوق الآخر.

ذهل غوين وهو يقوم بإلقاء الإمدادات. لا بد وأن سفينة كبيرة قد أغرقت ويبدو أن ما من أحد في القاعدة على علم بذلك. ألم ترسل إشارة استغاثة؟ ألم تعرف إحدى القيادات عن فقدان سفينة لها؟ شيء واحد فقط كان واضحاً: لن يبقى أولئك الرجال العائمون في البحر أحياء لفترة أطول. أخذ يتساءل عما إذا وصلت رسالته إلى المقر مدركاً أنه لم يصلح الهوائي بعد.

هرع غوين إلى مؤخرة الطائرة وزحف عبر قسم الذيل ومد يده خارج الطائرة وأمسك بالهوائي وجذبه إلى الداخل. ثم ربط خرطوماً مطاطياً حول نهاية الهوائي وبعد أن كره، قفل عائداً وحدّد إحداثيات الموقع وأبلغ القيادة بأن الناجين على متن زوارق نجاة وأنهم يرتدون سترات نجاة...

كان غوين قلقاً. ماذا لو أن أياً من الرسالتين لم تصل؟ قد لا يستطيع الناجون البقاء أحياء حتى نهاية اليوم.

مئة وخمسون من الناجين! لا بد أنها سفينة. ولكن أية سفينة؟ كان النقيب غرانوم مضطرباً وهو يقرأ نسخة من رسالة الملازم غوين الثانية التي التقطها. لم يخبره أحد بتأخر وصول أية سفينة كانت تمخر عباب البحر تحت سلطة قيادة حدود بحر الفلبين. لا داعي لأن يخبره أحد، خاصة إذا كانت السفينة سفينة قتالية. وعلى أية حال، فإن

وصول أو عدم وصول سفينة كهذه في منطقة الحدود ليس من شأنه، ورغم ذلك لم يكن غرانوم يريد أية كارثة تنعكس على القيادة، وكذلك الأمر بالنسبة لرئيسه العميد البحري جيليت.

أمر غرانوم مراقبيه بالتأكد من تأخر وصول أية سفن عن موعدها المقرر. اتصلوا على الفور بالملازم جبسون في مكتب مدير ميناء لايته.

ذكر جبسون أن ثلاث سفن تأخرت عن موعد وصولها المقرّر، من بينها الطراد إنديانابولس إذ كان ينبغي له دخول الميناء يوم الثلاثاء، أي قبل يومين، والالتحاق بمجموعة الحملة 95,7 التابعة لنائب الأميرال ماكورمك من أجل التدريب.

لم يصل الطراد إنديانابولس؟ لم يكن غرانوم قلقاً. لربما تم تحويل وجهته أو لعله انضم إلى أسطول ماكورمك دون إشعار مدير الميناء. أبرق النقيب إلى ماكورمك: «هل انضم الطراد إليكم؟».

كان الأميرال ماكورمك قد عاد لتوه من جولته التدريبية مع عدة سفن. وقد دهش قليلاً حين قرأ برقية غرانوم ويبدو أنه لم يكن يعرف بعد بالعثور على ناجين. على أية حال، ينبغي لقيادة الحدود تتبع مسارات السفن التي تمر عبر منطقة مسؤوليتها.

أبرق الأميرال إلى غرانوم بالنفي قائلاً إن الطراد لم ينضم إليه.

افترض غرانوم حين قرأ الرد أن وجهة الطراد لا بد وأنها قد

حُوِّلت، حسب ظنه. ومع ذلك، انتابه شك مخيف. مئة وخمسون من الناجين! إذن أية سفينة هذه؟

أيّاً كانت هوية السفينة، أصدر غرانوم بموافقة جيليت أمراً عاجلاً إلى العديد من زوارق وطائرات الدورية بالإسراع إلى مسرح الكارثة لإنقاذ الناجين وعدم السماح لأحد باتهام قيادته بالإهمال. نسق هذه الخطوة مع عملية إنقاذ هائلة بدأها بالفعل مقر بيليليو التابع للعميد البحري إليوت بكماستر Elliot Buckmaster، قائد المنطقة الفرعية لجزر الكارولين الغربية التابع لقيادة جزر الماريانا بإمرة نائب الأميرال موراي.

أمر بكماستر معاونيه بإبلاغ كل سفينة وطائرة في المنطقة. وهرع المعاونون إلى غرفة الاتصالات لتنفيذ الأمر. وخلال وقت قصير، تسابقت سبع سفن كانت قريبة نسبياً من المسرح لانتشال الناجين من البحر ـ مهما كان الثمن.

عند وصول الأنباء عن الناجين إلى الأميرالين كنغ ونيمتز وكبار القادة البحريين الآخرين، أمروا بفارغ صبر مشوب بالذعر، بالبحث عن الناجين أيّاً كان الثمن. ماذا لو هلك كل هؤلاء الرجال؟ هل يمكن أن تكون هناك كارثة أسوأ؟ سيتم إلقاء القنبلة الذرية على اليابان في غضون أيام قليلة، وقد يجد سلاح البحرية نفسه في لحظة المجد متورطاً في واحدة من أعظم فضائح الحرب.

كان الملازم ماركس متأكداً أن ذلك خطأ واضح. ربما غلطة في الترميز.

كانت طائرة ماركس PBY تتجه نحو الناجين العائمين على غير هدى عندما التقط الطيار عند الساعة 2,10 بعد الظهر رسالة من العميد أتيبيري إلى قيادته مفادها أن قرابة 150 من النجين يتخبطون في البحر.

ولدى استلام رسالة غوين الثانية، كان أتيبيري قد أقلع من بيليليو بطائرته السريعة فنتورا، بعد دقائق من مغادرة ماركس، ولديه أوامر بأن يحل محل غوين الذي قد يتعين عليه العودة إلى القاعدة للتزود بالوقود قبل وصول طائرة ماركس الأقل سرعة. أقلقت رسالة غوين الأولى أتيبيري، وصعقته الرسالة الثانية. لذلك قرّر أن يطير بنفسه إلى مسرح الأحداث. كان ميالاً إلى الشك إلى أن وصل إلى هناك عند حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، وأجرى بنفسه إحصاءً سريعاً.

أصبح ماركس الآن هو الميال إلى الشك. (لم يطلع على رسالة غوين الثانية التي كان يؤكدها أتيبيري). لعلها رسالة مشوشة أخرى. ولكن إذا كان التقرير صحيحاً، يحتاج الأمر إلى أكثر من طائرة برمائية وأكثر من سفينة إنقاذ واحدة؛ ينبغي أن تهرع كل سفينة إلى هناك. وعندما شاهد ثلاث سفن عند حوالى الساعة 2,35 بعد الظهر، فكر في توجيهها إلى موقع الكارثة المبلغ عنه. قرّر ألاّ يفعل ذلك ـ إذ ما من أحد سيصدق تقريراً غير معقول كهذا.

ولكن قبطان إحدى السفن، المدمرة سيسل ج. دويل Cecil J. Doyle ناداه على الراديو الصوتي. كان ذلك دبليو غراهام كلايتور الابن W. Graham Claytor, Jr. وهو ضابط متحجّر الوجه قوي

العزيمة. وكان مثل ماركس محامياً شاباً لامعاً وضابط احتياط يتمتع بشعور عميق من المهمة الشخصية في الحرب.

سأل كلايتور ماركس ماذا يريد؟

أخبره ماركس بمهمته ولكن بتشكيك. وعلى أية حال، ألا يعرف أحد في البحرية عن غرق سفينة تقل 150 رجلاً على الأقل؟

أذهل التقرير كلايتور أيضاً. في الحقيقة، علم بالأمر قبل دقائق من قيادته وكان متجهاً بالفعل نحو المنطقة المحدّدة للمساعدة في جهود الإنقاذ. إذا كان التقرير دقيقاً، يا لهول ما يعاني منه الرجال! أية سفينة هذه التي غرقت؟ لم يتمكن من التخمين أنها كانت الطراد إنديانابولس ـ بقيادة القبطان مكفاي، زوج ابنة عمه العزيزة لويز.

وإذ كانت طائرة ماركس تهدر في الجو فإن كلايتور، رغم إدراكه أن الغواصة ذاتها التي أغرقت السفينة المجهولة قد تهاجم مدمرته أيضاً، عكس مسار السفينة، وبدون انتظار أوامر، أسرع في الإبحار نحو مسرح الأحداث ـ هذا إذا ثبتت صحة التقرير.

وجّه الملازم ماركس جهازه اللاسلكي على إشارة راديو جورج أتيبيري وبدأ يبحث عن «الرمث الوحيد» الذي لا يزال يتوقع رؤيته. وفجأة، شاهد الطائرة فنتورا بقيادة أتيبيري وهي تحوم فوق المنطقة وسمع صوت أتيبيري يزأر على الراديو: «هناك عدد كبير من الناجين مبعثرين على مساحة واسعة. لذلك ينبغي ألاّ تلقوا أية معدات نجاة إلى أن أدلكم على المنطقة بكاملها، وعليكم عندئذ الحكم على

المكان الذي يمكن إسقاط المعدات فيه بما يعود بأفضل فائدة».

شعر ماركس بالذهول. إذن لم يكن التقرير مشوشاً. وبينما حلق غوين عائداً إلى القاعدة ولم يكن لديه من الوقود إلاّ ما يكاد يكفي للوصول إلى هناك، تبع ماركس أتيبيري وحملق من النافذة في عالم ميت بكامله ـ أجل، كان ذلك صحيحاً. ولكن عليه الآن أن يكون عملياً بلا رحمة.

قال: «شعرت أنه كانت لدى الناجين الموجودين على الرماث أو في مجموعات كبيرة أفضل فرصة للبقاء أحياء إلى حين وصول العون من السفن السطحية وأن المشكلة الفورية هي الحصول على مساعدة للأشخاص الفرادى وللمجموعات الصغيرة بدون رماث».

أمر ماركس طاقمه بأن يلقي لهؤلاء الفرادى والمجموعات ثلاثة من الرماث الأربعة التي كانت على متن الطائرة، ومجموعة أدوات، ومجموعة حصص طعام لحالات الطوارىء، وبعض علب صبغ ذي لون يمكن تحديده. استمر في الدوران وشاهد رمثاً وقع مفتوحاً وتمزق عند الهبوط وشاهد حصص الطعام الطارئة تتفتّت في الماء، ومجموعة عُدد السفن تنجرف دون استعمال، لأن الرجال كانوا كما يبدو من الضعف بمكان، بحيث تعذر عليهم الوصول إليها.

لم يهدأ فزع ماركس حتى عندما وصلت طائرة أخرى من بيليليو بعد دقائق ونثرت حمولة من الإمدادات في المنطقة. وكانت الحمولة لا تشكل سوى جزء بالغ الصغر من احتياجات الرجال.

يتعيّن عليه إرسال رسالة فورية ولكن بما أن الوقت كان حيوياً للغاية، لن يحول الرسالة إلى رموز حتى مع احتمال أن يكون العدو منصتاً. عند الساعة 4,25 من بعد الظهر، أمر مشغل الراديو، روبرت فرانس Robert France بإبلاغ مقر القيادة بلغة واضحة: «هناك في الموقع المبلَّغ عنه عدد يتراوح بين مئة ومئتين من الناجين، بحاجة إلى جميع معدات النجاة المتاحة طالما استمر ضوء النهار. كثير من الناجين بدون رماث».

تسمر ماركس وطاقمه بالمشهد الذي رأوه أسفل منهم، والذي ربما قد تبلور في ذهن رسام مجنون. شاهدوا رجالاً يبقبقون في الأمواج أشبه بسدادات فلين بشرية، كانت رؤوس بعضهم المسودة من الزيت تلمس سطح الماء في حين كانت أسماك القرش تسعى كالحيات في وسطهم وتلتقطهم أحياناً كيفما اتفق ـ وكما كتب مشغل الراديو فرانس إلى عائلته في وقت لاحق: «لم يكن أفضل مشهد رأيته قط حين كنت تقف... وتراقب سمكة قرش ضخمة تسبح مبتعدة وهي تحمل رجلاً بين فكيها».

لم يستطع ماركس تحمُّل ذلك المشهد فترة أطول. عليه أن ينزل إلى الماء وينقذ أولئك الرجال. ولكن الهبوط على أمواج طولها 12 قدماً آتية من الشمال الغربي قد يكون مثل الهبوط على كثبان رمال متحركة في الصحراء، ولا سيما أن للطائرة PBY5A، خلافاً للطائرة التقليدية PBY، ثلاث عجلات كبيرة يمكن سحبها إلى الداخل مما يضعف جدارتها البحرية. لم يحاول قط قبل الآن إنزال طائرة 5A

على المياه المكشوفة، وكانت كل المحاولات التي بذلها آخرون في سربه للقيام بذلك قد انتهت بكارثة، مما تسبّب في صدور أمر يمنع في واقع الأمر هبوطاً من هذا النوع.

ولكن ماركس، علماً منه بأن الضابط الذي أصدر هذا الأمر لم يكن بوسعه التنبؤ بالحالة الطارئة الحالية، قرّر أن يجتهد هو نفسه. في جميع مهمات الإنقاذ الأخرى، لم يكن يفعل سوى إلقاء معدات للناجين والاستمرار في الدوران إلى حين وصول سفينة لالتقاطهم. هل ينبغي له المجازفة الآن مع احتمال تحطيم طائرته وغرقها؟ هل يصح أن يعرض للخطر حياة طاقمه في محاولة لإنقاذ أولئك الرجال في الأسفل الذين ربما هم من الأعداء في نهاية الأمر؟ شعر ماركس أنه ينجح، إذ إنه كثيراً ما مارس عمليات هبوط للطائرة PBY من خلال إيقاف المحركات بالكامل. وبما أن طائرته الآن هي طراز PBY 5A، سيعرف كيف يتدبر أمر الوزن الإضافي في مقدمة الطائرة.

على الرغم من كل ذلك، تردّد ماركس في اتخاذ القرار بمفرده. لذلك حذا حذو الملازم ردمين حين استفتى رجاله في الماء عندما واجه خياراً حرجاً. شرح المخاطر عن طريق جهاز الاتصال الداخلي ثم سأل كل فرد من الطاقم عما إذا كان يحبذ الهبوط.

لم يفاجأ الرجال، فقد كانوا ينظرون إلى ماركس ليس بمجرد احترام وإنما بهيبة تقريباً. وكما روى أحد الرجال: «لم يكن ماركس من نوع الكثير من الضباط الذين يعتقدون بوجوب ممارسة الاستبداد

من أجل إنجاز الأعمال، ولكننا عرفنا ماذا يريد وكنا مستعدين للمضي في الخطوة الإضافية لإعطائها إياه».

ألم يساندهم عندما وبخهم الطيار المساعد ذات مرة لأنهم لم يخاطبوه بكلمة «سيدي»؟ ألم ينقذهم عندما تورطوا مع دورية السواحل مع أنه وبخهم بعنف فيما بعد؟ لقد أعطاهم سجائر وأقرضهم مالاً حين كانوا بحاجة إليه. إذن حان الوقت الآن لاتخاذ تلك «الخطوة الإضافية».

وافقوا جميعاً على الهبوط.

تأثر ماركس بهذا المظهر من الثقة ولكنه أحس بعبء ساحق من المسؤولية. ولم يكن ثمة وقت لطلب الإذن بالهبوط ـ كما أنه لن يجازف بطلب الإذن، إذ نظراً للسفن المبحرة دون شك نحو المنطقة بكامل سرعتها، قد يرفض رئيسه منح الإذن. صحيح، إنه قد يمثل أمام محكمة عسكرية ـ إذا بقي حياً بعد الهبوط ـ ولكن يحدث أن يتصرف المرء أحياناً وفقاً لما تمليه عليه روحه، أياً كانت العواقب. أبلغ أتيبيري بنيته، ثم أمر بوب فرانس بإرسال رسالة أخرى إلى القاعدة: «سنحاول الهبوط على سطح البحر».

ستف أعضاء الطاقم كل المعدات السائبة، وثبتوا الدارات الكهربائية، وربطوا أنفسهم بأحزمة في مراكز هبوطهم. وقبل أن يستطيع مقر القيادة الرد على رسالته، شد الحزام بإحكام، وقام باستدارة واسعة وأوقف محركات الطائرة. وبإيمان مطلق في مهارته

كطيار، اتجه داخل الريح الشمالية بسرعة ثماني عقد نحو الصحراء الزرقاء المتورمة.

تساءل الملازم ماكيـــيك وهو يعوم على شكل دائري: «ماذا يفعل أولئك الرجال هناك؟» كان الوقت متأخراً بعد الظهر وكان ينتظر دوره لعدة ساعات كي يغوص إلى الفندق تحت سطح الماء ليستطيع شرب بعض الماء العذب في المرحاض، ولكن الرجال الذين سبقوه إلى هناك لم يعودوا على ما يبدو. إنه تصرف غير عادل! يمكن أن يلجأ بالطبع إلى رتبته كضابط ولكن لن يكون ذلك صحيحاً. كم من الماء يمكن أن يشرب أولئك الرجال على أية حال؟

وفجأة، سمع ماكيسيك طنيناً فوقه ثم رشات ماء كبيرة. نظر إلى أعلى وشاهد طائرة تلقي أشياء في الماء حوله.

تساءل عن سبب تحليق تلك الطائرة فوقه. سبح تجاه أحد الأشياء، وكان عبارة عن رمث نجاة مفرغ من الهواء ومطوي على شكل رزمة، وتعمق اللغز. ما هذه الرزمة؟ سبح رجل آخر وصاح: «دعها وشأنها. لا تلمسها».

سأل ماكيسيك: «ولم لا؟».

شرح الرجل: «تلقي الطائرة أكياس البريد. إنها عملية اختبارية للبريد وينبغي ألاَّ نتدخل فيها».

تفحص ماكيـــيك الرمث ولكنه لم يستطع أن يتصور علاقته

بالبريد. أصر الرجل على موقفه وطلب من ماكيـــيك عدم لمـس «البريد».

وافق ماكيسيك. لم يكن يريد الذهاب إلى السجن. وإذ ابتعد عن الرزمة، تمنى لو تبتعد الطائرة وتدعه في أمان.

وعلى مقربة شاهد الطبيب هينز، شأنه شأن العديد من الرجال الأكثر عقلانية في البحر، وابل الإمدادات التي كانت تتساقط من فوق واعتبرها معجزة سماوية. قد يكون مخطئاً. ولكنها معجزة رغم ذلك. بعد أن أسقطت الطائرة الأولى، طراز فنتورا بعض أغراض النجاة في المنطقة ذاك الصباح، جذف هينز والعديد من رفاقه نحوها بعد أن تجدّدت قوتهم بطريقة سحرية ـ لم يجدوا سوى الكثير من سترات النجاة التي لم يكونوا بحاجة إليها، إذ إن الأموات قد وفروا الآن للأحياء ما يكفي من السترات، كما وجدوا صفائح ماء كانوا بحاجة لها ولكنهم لم يستطيعوا استعمالها لكونها متشقّقة.

ولكن زال غمهم حين أدركوا يقيناً أنه تم العثور عليهم أخيراً. ومع تجدّد الأمل في نفوسهم، حلقت طائرات أخرى بعد الظهر وألقت مزيداً من إمدادات النجاة، من بينها رمثان. بالنسبة لرجال يتذكرون بمشقة كيف يشعر المرء بمسند تحت قدميه ولرجال أخذوا يعتبرون أنفسهم من مخلوقات البحار، كانت الرماث ترمز إلى عالم نصف منسي حيث يعيش الناس على سطح صلب، عالم أصبح الآن وهماً أكثر منه حقيقة.

تجدّد نشاطهم وسبح هينز وكثيرون آخرون لجلب الرمثين في جو من البهجة. ولكن كيف يمكن نفخهما! لم تكن لدى أي منهم الحيوية لسحب المسمار العروة المثبت على قارورة الهواء.

حاول كل رجل سحب المسمار العروة ولكن لم تستجب العضلات. وأخيراً، استجمع العديد منهم آخر قوتهم وجذبوا المسمار معاً. انفتح الرمثان مثل زهرتين صفراوتين ضخمتين. ولكن كيف لهم الصعود على متنهما الآن؛ حاول هينز الصعود على أحدهما، ولكن لعله كان من الأسهل عليه صعود جبل أفرست Mount Everst. أصبحت ساقاه شبه ضامرتين من جراء عدم استخدامهما لفترة طويلة، ورفعه العديد من الرجال بما فيه الكفاية كي يتمكن من الاعتلاء فوق الحافة. بدت الأرضية المشبكة غريبة وهي تلامس لحمه الذاوي بعد أيام من انعدام الوزن. وخلال دقائق، بدأ جسمه العاري يذبل بعد أن تعرض للشمس بالكامل لأول مرة منذ غرق السفينة.

ونجح هينز ومساعده بطريقة ما في جر أشد الرجال مرضاً وأكثرهم فقداناً للوعي إلى الرمثين وألقوهم على متنهما.

قال الطبيب: «كانوا عراة وهزيلين، وذكروني بالجثث في غرفة التشريح».

نظر حوله ووجد كمية من الماء العذب مقدارها 1/8 من الغالون. وعلى الرغم من شعوره وكأنه مدمن على المخدرات ينتظر

الحصول على جرعة، لم يلمس أياً من الماء، بل سكب مقدار أوقية في كوب بلاستيكي كان مرفقاً بالصفيحة وقدم الماء أولاً إلى أولئك الذين كانوا في أمس الحاجة إليه. وفي حين كان الكوب ينتقل من يد إلى أخرى كل مرة، لم يحاول أحد أن يغش ـ رغم ظمأ يفضي إلى الجنون جعل حتى الطبيب يفكر أخيراً في سرقة نقطة من الماء.

وبعد فترة قصيرة، قفز إلى الماء ثانية هينز وجميع الآخرين من غير ذوي الإصابات الخطيرة أو المرضى، وكانوا أشبه بسمك يتلوّى على صنارة، وذلك لحماية أجسامهم من أشعة الشمس. وبينما كانوا متشبثين بجوانب الرمثين، هبطت معدات إنقاذ أخرى، بما فيها مزيد من الرماث وحتى زورق. وأسقطت بعض المعدات بوساطة المظلات. ولكن لم تعد لدى الرجال القوة للسباحة إليها. وعلاوة على ذلك، رغم كل بؤسهم، شعر العديد في هذه اللحظة من الإنقاذ بارتياح غريب بسبب طفوية الموئل البارد والمريح الذي تقبلوه للتو. هل كان يوجد حقاً أي عالم آخر؟

كان بوب فرانس بحاجة إلى كل الدعم الروحي الذي يستطيع الحصول عليه حين توقف عن إرسال الرسائل اللاسلكية وأسند نفسه إلى الدعامة في مقصورة الاتصالات اللاسلكية. وحسبما كتب إلى عائلته لاحقاً: «أحمل دائماً في جيب سترة الطيران كتاب صلاة ولكن لم يكن معي في هذه الرحلة رغم أنني كنت بأمسّ الحاجة إليه».

بدأت طائرة الدامبو تهبط بهدوء نحو الأمواج العاتية التي كانت تصل إلى أعلى مثل المفاصل فوق غابة من قبضات اليد. جلس

الملازم ماركس متصلباً في مقعد الطيار وحاول أن يطرد الصور من ذهنه ـ سمك القرش النهم، الجثث العائمة، الرجال الذين يلوحون بوهن. حاول نسيان الأرواح التي كانت تعتمد على هبوط آمن.

وكما كتب فرانس، وهو مواطن من بالتيمور Baltimore، في رسالة بعث بها إلى عائلته: «يا أماه، لقد حبسنا أنفاسنا تقريباً مثلما تفعلين قبل نزول الأفعوانية[1] في مدينة ملاهي كينيوود Kennywood.

سحب ماركس إلى الوراء ذراع توجيه الطائرة، وإذ أخذت سرعة الطائرة، تنخفض، راقب الماء وهو يندفع في الأسفل على مسافة بضعة أقدام. شعرت يداه أن مفاتيح التحكم أخذت تصبح «طرية» وهي دلالة على انخفاض سرعته الهوائية، أخذت عيناه تحسبان سرعة الرياح الجانبية، وأخذ جزء من ذهنه ينسق جميع «المدخلات» وهو يتمتم: «ليس بعد ـ ليس بعد ـ ليس بعد». عليه أن يوقف المحركات كلياً في تمام الثانية اللازمة لتجنب ارتطام عنيف.

«الآن!» وسحب ماركس الذراع كاملاً إلى الوراء نحو صدره ورطم وجه موجة مسجورة بينما أبقى مقدم الطائرة مرتفعاً كي لا تغوص المحركات في الماء. جلجلت الطائرة وتأوهت ولكنها بقيت سليمة دون ضرر. والآن بدأ ركوب الأفعوانية. قفزت الطائرة نحو 15

(1) الأفعوانية: سكة حديد مرتفعة تتلوى وتنخفض وتجري فوق قضبانها عربات صغيرة.

قدماً في الهواء ثم مرتين من موجة إلى أخرى قبل أن تتوقف أخيراً وهي ترتعش.

نهض ماركس من مقعده وعاين الطائرة للتأكد من عدم وجود أضرار. وخلال وقت قصير، سدت أقلام رصاص الثقوب الناجمة عن تفتق مسمارين مبرشمين وسدت قطع من القطن درزة لحام مفتوقة. وعدا ذلك، بدت الطائرة غير متضررة، وكذلك سمعة ماركس فيما يخص خبرته في قمرة القيادة. ولكن إذا كان ماركس طياراً ذا خبرة، ينبغي له أن يكون الآن ماهراً هاوياً.

وكما روى لاحقاً: «حين هبطنا، أدركنا أن ليس بوسعنا إنقاذ الجميع ـ كان علينا أن نتخذ قرارات مؤلمة تحق القلب. كان علينا الاختيار من بين الناجين».

اختار ماركس بادىء ذي بدء السباحين الذين كانوا بمفردهم. كان عليه أن ينقذ قدر ما يمكنه إنقاذه في الساعات القليلة قبل الغسق: «لأنهم كانوا الأكثر احتمالاً للاستسلام ليأس الليل». ومع ذلك، انتابه وخز الضمير، إذ سيتمكن من إنقاذ مزيد من الرجال في هذا الوقت المحدود فيما لو لملم المجموعات الأكبر. ولكن كان لدى هؤلاء الرجال دعم معنوي وتشجيع من رفاقهم وبعضهم كان على الرماث، وبالتالي يمكنهم الانتظار بمزيد من الأمان كي تلتقطهم السفن. أجل، عليه أن يكون قاسياً والتدرج أمام مجموعات الرجال، حتى وإن كان ذلك يعني احتمال أن يستنتجوا خطأ أنه تم التخلي عنهم ليموتوا.

«امْسِك بالحلقة امْسِك بالحلقة».

رفع الملازم ماكيسيك نظره ورأى مشهداً غريباً ـ كانت طائرة تنساب على الماء على مسافة أمتار منه. هل كانت هي الطائرة التي ألقت أكياس البريد؟ تمنى لو رحلت. ماذا كانت تريد منه على أية حال؟ لاحظ أن شخصاً ما كان يقف في جزء الطائرة الناتىء وهو يصرخ.

الحلقة؟ أية حلقة؟ نظر ماكيسيك حوله ورأى حلقة نجاة مربوطة بخط يتعرج من الطائرة. حسناً، قرر الاستسلام والسماح لهم بأن يفعلوا به ما يريدونه. تشبث بالحلقة، وبرجة واحدة تم سحبه سريعاً عبر الماء. ثم قال له صوت: «أهلاً بك على متن الطائرة!» وتم رفعه على سلم داخل الطائرة.

أين هو الآن؟ هل هذا هو الفندق؟

ناوله أحد الرجال نصف كوب من الماء وهو مستلق واهناً على أرضية جسم الطائرة وقال له: «هاك، اشرب هذا».

ابتلع ماكيسيك حصته من الغالونات الست عشرة من الماء على متن الطائرة، ثم جرى لفه في مظلة وقدم له بعض الطعام رغم أنه كان مصاباً بدوار شديد للغاية تعذر معه إبقاء الطعام في معدته. حملق حوله ولاحظ الصور المشوشة للعديد من الناجين الآخرين ممدّدين بالقرب منه. كان واحداً من أوائل الرجال الذين التقطتهم الطائرة التي

وجهه إليها الرائد أتيبيري الذي كان يحلق بطائرته فوقه بصفة مستكشف.

كان معظم الناجين، مثل ماكيك مصابين بالهذيان رغم أن واحداً منهم رحّب، على نحو ملفت للنظر، بأفراد طاقم الطائرة الذين امتطوا رمثاً مطاطياً للوصول إليه. حياهم قائلاً: «ضعوني على متن تلك الطائرة القديمة PBY».

كان هناك رجل آخر فاقد الوعي قبل أن تصدمه الطائرة وهي تدرج. أمر ماركس بنقله على متن الطائرة اعتقاداً منه أنه قتله ـ رغم أنه كان قد أنقذه بالفعل. لم يهدأ هلع الطيار وهو ينتقل من ناج إلى آخر أشبه بالهيكل العظمي، وقد جرى سحب البعض منهم عبر الماء بوساطة حلقة نجاة لمسافة كبيرة قبل أن تتمكن الطائرة من التوقف. (عند إيقاف المحركات، ضاع الكثير من الوقت الثمين حين توقفت الطائرة وأعيد تشغيل محركاتها). وفي الوقت نفسه، كان ماركس مشدوهاً حين علم بالمأساة من أول رجل تم إنقاذه. لن ينسى ذلك الرجل أبداً، وكان اللحم على ذراعيه ينقشر أثناء جره إلى الطائرة مثل لحم دجاجة مسلوقة.

من أي سفينة هو؟

استطاع الرجل أن يتمتم بالكاد: «إنديانابولس».

بالنظر إلى العدد الكبير من الناجين الطافين في البحر، استنتج

ماركس أن السفينة الغارقة لا بد وأنها كانت كبيرة. ولكن طراد؟ لا بد وأن المئات قد ماتوا بالفعل.

كم يوماً مضى على الناجين في الماء؟

لم يكن الش ب متأكداً ـ ربما أربعة أو خمسة أيام.

بدا الأمر شبه مستحيل. لم يستطع ماركس أن يتصور رجلاً يمكنه العيش تلك المدة الطويلة في البحر دون طعام أو م ء عذب، وهو معرض للشمس بلا رحمة ولهجمات سمك القرش. هذه أول كلمة عما قد حدث بالفعل. عليه إبلاغ مقر القيادة على الفور ـ ولكنه أدرك بعدئذ عدم إمكانه ذلك، إذ لم يكن لديه كتاب للرموز السرية، وإنما كتاب للرموز المكتومة ويمكن فك رموزه بطريقة أسهل. هل يمكن أن يجازف بأن يدع اليابانيين يعرفون اسم السفينة التي أغرقوها ـ إن لم يكونوا قد عرفوا بالفعل؟

في هذا الوقت تقريباً، كان القائد هاشيموتو يندب حظه ثانية. رغم أنه كان لا يزال يحاول إقناع نفسه بأن غواصته قد أغرقت سفينة قتال، لم يستطع أن يكون واثقاً قطعاً. كان يريد بأي ثمن «فريسة» أخرى مؤكدة، ضربة تأمين. عليه أن يعرف أنه أوفى بالتزامه للإمبراطور وللآلهة.

في يوم الأربعاء الموافق الأول من آب / أغسطس، أخذ يتربص لسفينة عدوة مرة أخرى ـ على مسار أوكيناوا ـ يوليثي Ulithi، الذي ظن الملاح تاناكا أنه يعج بحركة سفن عدوة. وإذا صعدت الغواصة

إلى السطح على طول المسار عند حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، متجهة شمالاً بسرعة 12 عقدة، شاهد هاشيموتو صارياً في الأفق. حملق عبر منظار الأفق وشاهد، على مسافة 1200 متر، بدن وجسر ومداخن سفينة تتراوح حمولتها بين ثمانية وعشرة آلاف طن متجهة غرباً. إنها سفينة تجارية بلا مرافقة.

أمر هاشيموتو طاقمه بزيادة سرعة الغواصة إلى حدها الأقصى، وشعر بالتفاؤل الحذر نفسه الذي شعر به حين شاهد الطراد إندياناپولس.

ولكن السفينة العدوة كانت في غاية السرعة. فقد تلاشت مبتعدة، وتركت القبطان يلعن سوء طالعه مرة أخرى. فالحكومة اليابانية، في محاولة منها لتخفيف التكاليف، زودت الغواصة 58 - I بمحركات في منتهى الصغر بحيث لا تؤمن لها السرعة التي يحتاجها لمجاراة سفينة بمثل هذه السرعة ـ إن لم تكن متجهة نحوه مباشرة مثل تلك «السفينة القتالية». وبما أن ضوء القمر أخذ يخبو، لن يتمكن من مهاجمة السفينة التجارية أثناء الليل حتى وإن استطاع مجاراتها. إنه فشل آخر. يبدو أنه سيعود إلى وطنه مرة أخرى بدون ضربة قاتلة مؤكدة واحدة.

كان هاشيموتو ذاهلاً لدرجة أنه لم يلحظ تقريراً لاسلكياً صادراً عن وحدة استخبارات في طوكيو في اليوم التالي الموافق 2 آب / أغسطس يقول: «حركة كثيفة للعدو تشير إلى أن سفناً حربية كبيرة تقوم بالبحث عن حطام».

واصل الملازم ماركس مهمته بحماس شبه ديني: يجب ألاَّ يموت آخرون. ووجد أفراد طاقمه هذا التفاني المتقد معدياً. ومن بين من تحمسوا على نحو خاص الضابط مورغان هنسلي Morgan Hensley ملاح طائرة ماركس، وهو رجل مفتول العضلات كان مصارعاً هاوياً في المدرسة. ولدى إخفاق أحد الناجين في الإمساك بالحلقة، كان هنسلي الواقف في الجانب الناتىء الأيسر من الطائرة، يمد يده إلى أسفل ويمسك بالرجل من تحت ذراعيه ويرفعه خارج الماء ويلقي به من فوق رأسه داخل الطائرة ـ إنه عمل هرقلي. وقد حذا حذوه المسؤول عن المعدات الحربية إيرل ر. دكسبيري .Earl R Duxbury.

وسرعان ما بدا أن بدن الطائرة PBY كاد ينفجر من كثرة الرجال وكان التحرك داخل الطائرة شبه مستحيل. ومع ذلك، تم حشد مزيد من الرجال ومزيد من كتل اللحم البشري المتقرح من الماء المالح، وكان اللحم من الهشاشة بمكان بحيث إن العظام قد شقت طريقها عبر أخمص الأقدام التي حاولت الوقوف على سطح صلب. وانتشرت في الطائرة رائحة البول والبراز والتقيؤ والزيت، كما عمّ الطائرة عويل البؤس وهذيان الجنون مثلما هو الحال في مستشفى للأمراض العقلية. كان معظم الرجال تقريباً مثل الملازم ماكيك في حالة من عدم الاستقرار بحيث تعذر عليهم الابتهاج بخلاصهم أو حتى الإدراك بأنهم قد أُنقذوا (أو في الواقع قد هلكوا في البحر). طلب البعض منهم الذهاب إلى الحانوت من أجل شراء شراب بينما نادى آخرون

أمهاتهم أو محبوباتهم أو زوجاتهم. غط معظمهم سريعاً في سبات عميق، وهو أول نوم حقيقي يتذوقونه منذ أيام.

شاهد هينز الطائرة PBY تهبط على مسافة من مجموعته وأخذ يترقب الإنقاذ بفرح. وأبقى هو ورفاقه عيونهم التي كانت تكاد لا ترى شيئاً ملصقة بالطائرة وهي تدنو أكثر فأكثر وتتوقف لتلتقط الناجين المنعزلين هنا وهناك. وأخيراً، انسابت الطائرة إلى مسافة مئة متر من المجموعة وأخذ الرجال يلوحون ويصرخون ويهتفون فرحاً خاصة عندما لوح أحد أفراد الطائرة لهم. ها قد رأوهم إذن!

لقد حصلت المعجزة بالفعل وأصبح الإنقاذ قاب قوسين أو أدنى. ولكن حولت الطائرة اتجاهها فجأة. صعق الرجال وتعذر عليهم فهم هذه «الخيانة». ألا يوجد من يهتم بهم في هذا العالم؟ استمروا في الصراخ ولكنهم أخذوا الآن «يهزون قبضات أيديهم ويذرفون دموع اليأس الحالك».

ولكن بعد وقت قصير، اقتربت الطائرة بمحاذاة الرمثين اللذين ملأهما هينز بأسوأ الحالات، وتم رفع هؤلاء الرجال على الجناحين حيث ثبتوا بقطع من حبال المظلات ثم أسقط أفراد الطاقم صندوق طوارىء يحوي عقاقير من المورفين، ومعدات للإسعاف الأولي، وحصصاً غذائية وربع غالون من الماء للرجال الآخرين في مجموعة هينز الذين كانوا جميعاً شبه مستكنين على الرماث بانتظار سفينة لإنقاذهم.

تمكن هينز من تخفيف معاناة بعض هؤلاء الرجال باستعمال الإمدادات الطبية ولكن لم يتمكن من القيام بما يكفي لأولئك الرجال الذين غدت حالتهم حرجة في الساعات القليلة الماضية من جراء فقدان سوائل الجسم. وتوقع هينز عدم وجود ما يكفي من الماء لمساعدتهم في البقاء أحياء أكثر من بضع ساعات.

وما كان من شأن معرفته بأن الإنقاذ بات وشيكاً إلاَّ أن زاد من عذابه، إذ بعد كل هذه المعاناة، هل سيموت رجال قبيل ساعات من إنقاذهم؟ عليه الحصول على مزيد من الماء! قام بحث مسعور في كل شق من أحد الرماث إلى أن عثر على جهاز يحول ماء البحر إلى ماء صالح للشرب. ولكن كيف يعمل هذا الجهاز! جاهد ليقرأ التعليمات المرافقة للجهاز في الدقائق الأخيرة من ضوء النهار.

وكما تحسر في وقت لاحق: «قرأت التعليمات مرة تلو الأخرى... ولكن عندما حاولت استخدام الجهاز رفض دماغي الخَدِر الانصياع».

حاول إزالة الملح من الماء قدر الإمكان ولكن الماء ظل يقطر مالحاً من الجهاز. واستسلم أخيراً وفي نوبة من الغضب الشديد والإحباط، ألقى المحول في البحر. كان قد حاول لمدة أربعة أيام مروعة أن يساعد رجاله المحتضرين والمخبلين، ولكن لا يمكنه عمل الكثير بدون إمدادات طبية. باتت لديه الآن فرصة للإبقاء على حياة البعض منهم إلى حين وصول سفينة إنقاذ ولكنه فشل. وفجأة، فجر كل التوتر الذي كظمه بداخله السد العاطفي الذي احتفظ به للسيطرة

على استقراره وعقلانيته. جلس هينز على حافة الرمث ووضع رأسه بين يديه وبكى بكاءً مريراً.

سيصبح الليل عباءة موت للعديد من مجموعة الملازم ردمين أيضاً. وبدا أن التدريب الذي حصل عليه هارلان توايبل في أنابولس لم يستطع مساعدة الرجال الآن. فقد تسلم توايبل زمام القيادة متأخراً للغاية من الملازم الذي بات عاجزاً عن معرفة هويته الذاتية والذي كان حتى بعد ظهر يوم الخميس فاقد الوعي من جراء ضربة توايبل على الرأس بعلبة بسكويت في وقت سابق من اليوم. كان الرجال يموتون على نحو سريع للغاية بحيث بات من العسير إبعاد جثثهم التي كانت تكسو الماء حول الرماث. وكان معظم الرجال الذين ما زالوا أحياء في حالة من الخبل الشديد جعل من المتعذر عليهم حتى فهم أوامر توايبل.

ومع ذلك، استمر توايبل، وهو لا يزال في الماء، في إصدار الأوامر. طلب من الرجال الصبر والبقاء قرب الرمث والدعاء إلى الله. لقد فعل كل ما بوسعه ولم يغمض عينيه ولو لدقيقة واحدة منذ غرق الطراد. ولكنه سلم بأن تفكيره قد ضعف وأدرك أنه لن يتمكن من العيش أطول من ذلك. وعلى أية حال، فهو إلى فناء رغم منزلته التفضيلية في كتاب الله. أجل بعد حلول الظلام، فإن الله وحده هو القادر على مساعدة هؤلاء الرجال.

ولكن ظهرت الرحمة قبل حلول الظلام، إذ هبط فجأة قارب نجاة بوساطة مظلة من إحدى الطائرات، وخرجت حشرجات من

حناجر كانت في غاية الظمأ والجفاف بحيث تعذر عليها التفوه بأصوات مفهومة. سبح توايبل إلى القارب بما تبقى لديه من طاقة إذ عرف كيف يشغل معداته وأمر رجاله القادرين على نقل المصابين، بمن فيهم ردمين. وجد في القارب صفائح ماء وسجائر قام بتوزيعها وسط ابتهاج صامت انعكس انعكاساً خافتاً في الأعين الضبابية. كما اكتشف معدات اتصالات رغم خيبة أمله عندما تبين عدم صلاحية الهوائي.

بيد أنه كانت توجد مرآة لإرسال الإشارات. كان توايبل قد تعلم في أنابولس بتردّد كيفية استعمال المرآة معتبراً إياها أداة بدائية ووسيلة غير فعالة لإرسال الإشارات وهي تصلح للكشافة الصغار أكثر منها للبحارة. ولكن أخذ الآن يشغل المرآة بتفاني رجل يحمل المفتاح الأخير للبقاء على قيد الحياة. أبلغ الطائرة التي ألقت قارب النجاة عن «حالتنا وسبب كوننا في هذه الحالة» وبيّن الحفنة التي كانت تحمل الرجال. ولكن انعكست رسالة مفادها فقط «تمهل!». يبدو أن رسالته لم تفهم.

وقبل أن يتمكن من المحاولة مرة أخرى، رأى أن الله قد أدركهم بالعون، إذ على بعد بضع مئات من الأمتار، هبطت الطائرة PBY التي كانت ألقت الإمدادات أول مرة وكانت تتمايل نحو مجموعته. وفجأة، دبت الحياة نوعاً ما في الرجال الذين كانوا حتى تلك اللحظة في حالة غيبوبة.

«انظروا، إنها آتية من أجلنا!».

«لقد نجونا!».

في غمرة الفرح، بدأ بعض الرجال يسبحون نحو الطائرة. صرخ توايبل: «عودوا! عودوا! هل تريدون أن تموتوا! انتظروا هنا. سوف تلتقطنا!».

أطاع معظم الرجال رغم ارتباكهم. ولكن أحدهم «ظل يهذي» ثم ترنح باتجاه الطائرة ـ الملازم توم بروفي. لاحظ توايبل بروفي بالكاد حتى الآن، إذ كان أسود الوجه مثل البقية وكان راضياً بأن يظل مجهولاً أثناء المحنة؛ والآن فقط، في جنونه الظاهري، يبدو أنه فرض نفسه أخيراً متجاهلاً نداءات توايبل.

زعم بلوم في وقت لاحق أنه لم يكن يعرف قط عن وجود صديقه ضمن المجموعة. وعلى أية حال، لم يكن يستطيع رؤية بروفي يسبح بعيداً، إذ كان في حوالى الوقت نفسه متجهاً باتجاه مختلف. فقد أسقط رمث صغير قابل للنفخ على بعد قرابة مئة متر، وحين سبح أحد الناجين لالتقاطه، لاحظ بلوم أن الرجل لم يستطع تشغيله ليعود إلى المجموعة في الماء الهائج. هل ينبغي له أن يساعده ويخاطر بحياته وقد بات الإنقاذ قريباً؟ لا يزال بعض الرجال عائمين في البحر ويمكنهم بالتأكيد استخدام الرمث. وإلى جانب ذلك، يحتمل أن يجد على متن الرمث ماءً عذباً وإمدادات أخرى. آه، ماذا يهم! وغاص في البحر.

بعد أن سبح بلوم لمدة خالها ساعات، انضم أخيراً إلى الرجل

الذي كان منقطعاً على الرمث. ونجح الاثنان في التجذيف فوق الأمواج العاتية والعودة إلى المجموعة وهما يئنان ويصران أسنانهما. فتح بلوم صفائح الماء الست التي وجدها على الرمث، وهو في منتهى الإنهاك، وانغمس هو والآخرون في حفلة شرب بلغت حصة كل منهم بضع أونصات. كان الماء أفضل حتى من الشراب الذي غرق مع السفينة. وبدا أنه فعال بنفس القَدْر. كان رأس بلوم متدلياً فوق جانب واحد من الرمث المكتظ وقدماه متدليتان فوق الطرف الآخر وقد تمدّد رجلان أو ثلاثة رجال فوقه. وراح بلوم في سُبَاتٍ عميق.

وكذلك فعل رفيقه توم بروفي الذي غطّ في نوم لم يستطع أن يستيقظ منه. لم يصل أبداً إلى طائرة ماركس. وتساءل توايبل في وقت لاحق: «عمّا إذا كان بروفي قد اعتقد أن الطائرة قد أرسلت من أجله أم لا. ربما كانت هذه رؤياه آنذاك. فقد كان ينحدر من عائلة مرموقة».

منذ وقت متأخر من الصباح، حين شاهد الكابتن مكڤاي وأوثا آلتون هافنز والآخرون القابعون على رماث القبطان طائرة فنتورا بقيادة الملازم غوين تستدير وتحلق فوق المنطقة على بعد أميال إلى الجنوب، عرفوا جميعاً أنه قد عثر على الناجين أخيراً. وعرف هافنز السبب أيضاً. يبدو أن الله قد أسبغ رحمته عليه، حيث يلتحق هافنز بالكهنوت بعد الحرب مقابل أن ينقذه الله مع رفاقه. لم يعرف الآخرون سوى القليل عندما أَمَّهُم مكڤاي في صلاة الرب عند الغسق

مثلما كان يفعل كل مساء بأن الرب، في إدراك هافنز الحسي على الأقل، قد رحمهم بإنقاذهم على ما يبدو.

ومع ذلك، كانت الأمور تسير على نحو أفضل، لكن بتأرجح على ما يبدو، إذ طيلة بعد الظهر، بعد أن ظهرت الطائرة فنتورا، كانت طائرات تندفع عبر السماء ـ ولكن ليس فوق مجموعة مكفاي. وقد تمزق مكفاي عاطفياً بهذا النمط الغريب من الطيران. وأحسّ بالرضا لأن مزيداً من رجاله لا بد وأنهم أحياء. ولكن هل سيخفق المنقذون في العثور على أسطوله الصغير؟ كان البحث يتجه جنوباً على ما يبدو في حين كانت رماثه تنساب شمالاً. لبط رجاله في الماء وصرخوا إلى السماوات، على أمل أن يجذبوا الانتباه نوعاً ما، ولكن لم يكن أي طيار على ما يبدو ينظر في اتجاههم.

صاح أحدهم فجأة: «قدر مليء بالدخان! لعلهم يرون قدراً مليئاً بالدخان!».

كان الوقت لا زال في بداية المساء وكان هناك بصيص أمل في أن يرى الطيّارون الوعاء قبل حلول الظلام.

ولكن كيف سيضعون قدراً كهذا؟

قال مكفاي: «ماذا عن صفيحة الذخائر»؟ وأشار إلى صفيحة كبيرة انتشلها الرجال من البحر ووضعوها على أحد الرماث قبل وقت قصير.

ألقيت في الصفيحة قطع من عدة سترات نجاة وأحزمة مطاطية ثم

أشعل سهم ناري من أجل إشعال المواد. تلولب الدخان ببطء في السماء ولكن لم يلاحظ أحد كما يبدو في الغسق الرمادي. ومع مرور كل ساعة، تضاءلت فرص أن يشاهدهم أحد ما مع اشتداد الظلام ومع تحرك الرماث والطائرات باتجاهات متعاكسة.

وفي أثناء ذلك، كان غايلز ماكوي، شأنه شأن هافنز وتوايبل وكثير من الناجين الآخرين، يعتمد على الله اعتماداً شبه كلي ـ إن لم يكن لإنقاذ حياته فعلى الأقل لكي يستقبله الله بترحاب. لقد طهر ذهنه وجسمه قدر الإمكان. والآن، في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، استلقى في رمثه ينتظر أن يفعل الله ما يشاء.

فقد ماكوي وزميله في الرمث فلتون آوتلاند إحساسهما بالإدراك وهو إحساس كان حاداً في وقت ما وأخذا يتنافسان لمعرفة من منهما سيعيش مدة أطول من الآخر. ولم يدركا حتى ذلك الحين أن الطائرات كانت تحوم بالقرب منهما وأن الإنقاذ بات وشيكاً. حملق ماكوي في السماء وشاهد غيوماً سوداء تبحر عبر ستارة الغسق الرمادية؛ وبعد لحظات قليلة، أخذت قطرات المطر تهطل على البحر.

منذ أن قاوم ماكوي شرب الماء المالح الذي اغترفه بيديه، عانى من العذاب الذي يعانيه المدمن على المخدرات وهو يحاول التخلي عن هذه العادة. والآن، ها هو الماء العذب أخيراً!

هتف ماكوي إلى آوتلاند: «انظر، المطر. علينا أن نلتقط بعضاً منه».

نزع ماكوي حزام النجاة المطاطي الذي كان يرتديه وشقه بمساعدة آوتلاند. لعلهما يستطيعان احتجاز قطرات من المطر في هذا الخزان المُرْتَجَل، تكفي على الأقل لتهدئة حنجرتيهما الجافتين. هطلت الدموع المقدسة وأمسك الرجلان بالأنبوب وأحسّا بالبهجة مع تحول القطرات إلى بركة أخذت ترتفع بثبات. وعندما توقف المطر فجأة، رفع ماكوي طرف الحزام النهائي إلى فمه وجعل الماء يقطر في حنجرته. تقيأ، هل تسمّم؟ فجأة لاحظ في داخل الأنبوب طبقة حافظة على شكل مسحوق أفسدت الماء وجعلته غير صالح للشرب.

أحس ماكوي باليأس؛ لم يستطع أن يفهم. هل كان الله يختبر إيمانه قبل أن يستدعيه؟ عليه أن يبين أنه يتعذر زعزته. أجل، إنه مستعد للذهاب إذا أراد منه الله ذلك بنفس قدر رغبته في أن يجنب والدته بؤس فقدان ابن آخر. ومع ذلك، ولكونه منافساً قوياً، ظل يأمل في كسب المباراة مع آوتلاند. فكّر في أنه ما زال مرجحاً أن يموت الرجال الثلاثة الفاقدو الوعي في الرمث قبل أي منهما.

استلقى ماكوي مرة أخرى وترقب القرار. عند حوالى الساعة 10,40 مساءً، بينما كان يحملق في السماء البعيدة، وقع بصره على مشهد غريب. فقد تحولت الغيوم السوداء التي سكبت قبل قليل كل الماء المهدور إلى غيوم بيضاء لامعة مائلة إلى اللون القرنفلي. هل كانت هذه علامة من السماء؟

هتف إلى آوتلاند: «انظر إلى ذلك النور!».

نظر رفيه ـ وشهق.

سأله ماكوي: «إننا لا نرى حلماً، أليس كذلك؟».

«كلا، تلك الغيوم مضاءةً».

صاح ماكوي: «لا بد أن سفينة أطلقت ضوءاً كاشفاً على بعد منهما. يريدوننا أن نعرف أنهم عثروا علينا!».

وكما روى ماكوي لاحقاً: «لقد بكى الرجلان أشبه بطفلين».

لقد اجتاز الاختبار.

إذا كان الله يكافىء غايلز ماكوي، فإنه كان يفعل ذلك عبر العميد البحري كلايتور، قبطان المدمرة سيسيل ج. دويل، إذ إن كلايتور هو الذي أعطى الرجال سحابة قرنفلية كرمز للأمل. وأيّاً كان الذي يوجهه، فإنهم بالتأكيد ليسوا رؤساءه. فقد كان يكرّر خرق قواعد البحرية ولكنه، مثل أدريان ماركس، كان مستعداً للمجازفة بالمثول أمام محكمة عسكرية إن كان ذلك يعني إنقاذ ولو حياة إنسان واحد.

مع أن كلايتور كان يبحر في منطقة للغواصات، فقد أمر رجاله بإضاءة نورين كاشفين قطر 24 بوصة ـ أحدهما للعثور على الناجين في الماء وتجنب دهسهم، بينما وجه أشعة النور الثاني نحو السماء ليعلم الناجون أن العون في طريقه إليهم. ومكمن الخطر هو احتمال تربص غواصة للعدو في المنطقة بحيث تجد سفينته هدفاً مثالياً. ولكن بالنظر إلى الظروف، شعر أن القيام بمجازفة محسوبة له ما يبرره. فقد تدرب كلايتور جيداً على حساب المجازفات وعلى

تكييف القواعد عندما تقتضي الأوضاع ذلك. ولد كلايتور في روانوكي Roanoke بولاية ڤيرجينيا وعمل رئيساً لمجلة Harvard Law Review وكاتباً قانونياً لقاضي المحكمة العليا لويس د. براندیس Louis D. Brandeis.

أدرك كلايتور من الرسالة التي بعث بها ماركس وأتيبيري من خلاله أن التقارير الأولية لم تكن مشوشة وأنه لا يمكن لهذا العدد الكبير من الناجين إلاّ أن يكون قد أتى من سفينته. ومما زاد في تأكيد المأساة رسائل معترضة مماثلة بعث بها طيار القوى الجوية التابعة للجيش الملازم رتشارد سي. آلكورن Richard C. Alcorn الذي هبط بطائرته PBY في الماء قبل ساعات من هبوط ماركس.

كانت حنجرة آلكورن مصدر قلق خاص لكلايتور، إذ لكون الطيار قد هبط مباشرة بعد حلول الظلام، لم يتمكن من العثور إلاّ على واحد من الناجين. أضاء أنوار طائرته ولكنه أطفأها سريعاً حينما ألقت طائرات إنقاذ أخرى إمدادات ثقيلة كادت أن تحطم طائرته، ظناً من تلك الطائرات أن الناجين كانوا يرسلون إشارات ليدلوا على موقعهم. وبما أن آلكورن لم يجرؤ على التدرج دون أنوار خشية الارتطام بأحد الناجين، سرعان ما انتهت جهود الإنقاذ التي بذلها، وأسرع في العودة إلى مقره في الصباح التالي بعد نقل أحد الناجين إلى المدمرة دويل.

ومع أن النور الكاشف الذي بعثه كلايتور كان يضيء مسار المدمرة دويل، خشي، شأنه شأن آلكورن، أن يرتطم ببعض الناجين.

وهكذا، حين دنا من منطقة الكارثة، وجه جهازه اللاسلكي على الإشارات الواردة من طائرة ماركس الدامبو، وعلم أنها التقطت عدداً كبيراً من الرجال الذين يمكنه استيعابهم في طائرته مباشرة دون أن يضطر إلى التدرج.

وبمساعدة مشعل أسقطته إحدى الطائرات بوساطة المظلة، اتجهت المدمرة دويل نحو الطائرة PBY بعد منتصف الليل بخمس عشرة دقيقة تقريباً. وفي أثناء ذلك، وفي سباق ضد الموت، كانت ست سفن أخرى تمخر عباب البحر من نقاط مختلفة طيلة الليل وهذه السفن هي: المدمرتان ماديسون Madison ورالف تالبوت Ralph Talbot، والسفن باسيت Bassett ورنغنس Ringness وريجستر Register المخصّصة لنقل الجنود والملحقة بالمدمرات، وسفينة المرافقة دوفلهو Dufilho. ولكن الطراد دويل كان أول من وصل إلى مسرح الأحداث. وحالما توقف قرب طائرة ماركس، أمر كلايتور العديد من الرجال بإنزال مركب طويل ضيق والتوجه إلى الطائرة لجلب من تم إنقاذهم من الرجال. ثم أخذت السفينة تنساب قليلاً في الأمواج الهادرة وأنوارها مضاءة...

حملق الطبيب هينز في الظاهرة المبهرة وهو لا يصدق ما يراه. هل كانت تلك الأنوار وميض الموت أم وهج الخلاص؟ وعرف الجواب خلال لحظة واحدة حين وجد نفسه أشبه بقزم مقارنة مع شبح سفينة شقت طريقها فجأة عبر الضباب المشع. وأخذ نور السفينة الكاشف يتأرجح عبر الرمث الصغير.

وكما روى هينز لاحقاً: «ولكن لم نشعر بالابتهاج حتى تلك اللحظة. لم تكن هناك هتافات، لأن السفينة كانت مجرد فصل في موقف سيتواصل إلى ما لا نهاية».

وقد رفض بحار عار من الثياب كان على متن رمث هينز الصعود إلى السفينة ما لم يحصل على «ضمان» بإعطائه جرعة ماء.

صاح صوت من سدة ربان السفينة قائلاً: «يا بني، لدينا كل الماء الذي بوسعك أن تشربه».

ولكن ظل البحار متشكّكاً. وصاح: «إن لم يكن لديكم ماء للشرب، افرنقعوا ودعونا وحدنا».

ساعد طاقم السفينة هينز ورجاله في ارتقاء سلم والصعود على سطح السفينة. لكن انحنت سيقانهم بفعل وزن أجسامهم النحيلة حين حاولوا المشي على السطح الصلب غير المألوف لديهم، إذ بعد خمسة أيام أمضوها في الماء، شعروا أنهم حيوانات مائية أكثر منهم كائنات بشرية. اضطر الأمر إلى جر معظمهم أو نقلهم عبر ممرات إلى حجيرات أعدت لهم. ولدى دخول هينز إلى الحجيرة، أعطي كوب ماء تجرعه دفعة واحدة نشوى. ثم صعد مرتجفاً إلى سدة قبطان السفينة حيث سأله العميد كلايتور عن اسم السفينة التي جاء منها.

حملق هينز في كلايتور بدهشة لعدم معرفته السفينة التي جاء منها.

تمتم قائلاً: «إنك تنظر إلى ما تبقى من الطراد إندياناپولس».

وفي تلك اللحظة أغمي على الطبيب هينز الذي قاوم فقدان الوعي مدة أربعة أيام مرعبة، كما أوشك كلايتور أن يغمى عليه من الصدمة. إنديانابولس ـ سفينة تشارلي مكڤاي! يا ترى ماذا حدث لزوج ابنة عمه؟ كان كلايتور يعرف مدى إخلاص لويز لمكڤاي وراعته فكرة إبلاغها خبر عدم نجاة القبطان مكڤاي.

واصل كلايتور التصرف باستقلالية. فقد أمر العميد جيليت، قائد حدود بحر الفلبين، أول سفينة تصل إلى مسرح الأحداث بإعلامه على عجل عن «هوية الناجين» و«سبب الغرق». كان جيليت وضابط العمليات في قيادته، النقيب غرانوم قد اكتشف قبل ساعات قليلة فقط عدم وصول الطراد إنديانابولس إلى لايته وبالتالي كانا ينتظران بعصبية معرفة ما إذا كان الطراد هو السفينة التي أغرقت لأن مستقبلهما المهني يمكن أن يتوقف على الجواب.

ولكن كلايتور الذي يتلقى الأوامر من غوام ولم يستلم أمراً من جيليت بعث برسالة عبر القنوات الاعتيادية موجهة إلى قائد جزر الكارولين الغربية قال فيها: «وصلت إلى المنطقة، وإني ألتقط الناجين من السفينة إنديانابولس. . . ـ التي أصيبت بقذائف طوربيد وأغرقت يوم الأحد الفائت ليلاً».

أدرك كلايتور أن هذه الرسالة التاريخية ستهز سلاح البحرية من أساساته. ولكن إذا كانت المأساة في منتهى الأهمية بحيث يتعذر فهمها فهماً تاماً بهذه السرعة، فقد أدركها كلايتور بقوة من الناحية

الشخصية. إنه يعرف لويز وإذا كان تشارلي ميتاً، فإن حياتها تكاد تنتهي أيضاً.

كادت حياة الرجال المحشورين على رمث دونالد بلوم توشك على الانتهاء عندما بهر أعينهم فجأة نور ساطع عند حوالى الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم الجمعة. ثم دوى صوت مضخم في الليل يقول: «من أنتم؟».

استيقظ بلوم فجأة من نومه وأخذ يزيح الرجال المنبطحين فوقه ووجد نفسه وقد أعماه النور الكاشف رغم أنه استطاع تمييز ماسورة مدفع رشاش موجه نحو رمثه. هل كان ما يراه حلماً داخل حلم؟

أعاد الصوت السؤال: «من أنتم؟».

صرخ أحد الرجال الموجودين على الرمث: «نحن من السفينة إنديانابولس».

هنيهة صمت مشوب بالصدمة. كان الضابط جاك بروزر Jack Broser متشكّكاً، وكان آمر زورق طويل ضيق من سفينة النقل باسيت التي كانت ثاني سفينة تصل إلى موقع الكارثة. السفينة إنديانابولس؟ إذا كان طراد قد غرق، لكان قبطان باسيت قد علم بالحادثة وأخبره. لعلهم كانوا يابانيين يتظاهرون بأنهم أمريكيون. حملق في الوجوه ـ سوداء! هل كان هذا تنكّراً؟ هل لديهم قنبلة جاهزة لتفجر رجاله؟ ولما كان من سكان نيويورك، سأل: «أين يلعب فريق دودجرز Dodgers؟».

شدا صوت: «في بروكلين».

ثم هنيهة صمت أخرى. سمّر بلوم عينيه على الرجل الواقف وراء المدفع الرشّاش خشية أن يخطىء رجال السفينة باسيت الظن بأن مجموعته هي عدوة: هل سيقتل بأيدي سلاح البحرية الذي يعمل فيه؟ انزلق خلسة داخل الماء وتوقع سماع قعقعة مميتة.

ولكن بدلاً عن ذلك، وجد بلوم نفسه ينتشل من الماء من قبل الغرباء ويجر إلى زورقهم حيث انضم إلى رفاقه في الرمث. شكر الله مُدَبِّر الكون لأن أيّاً من الرجال الذين كانوا على الرمث لم يجب في حالة الجنون التي كانوا عليها «شيكاغو» أو «فيلادلفيا» عندما سئلوا عن المكان الذي يلعب فيه فريق دودجرز.

ثم استدار القارب وأخذ طاقمه يبحث عن مزيد من الرجال وعاد بعد فترة قصيرة إلى السفينة باسيت بحمولة كاملة. كان بلوم أول من وطأت قدماه سطح السفينة، إذ إنه الرجل الوحيد الذي كانت لديه قوة كافية لتسلق شبكة البضائع دون الحاجة إلى مساعدة. أرشده رجال الطاقم إلى سدة قيادة السفينة حيث وجد القبطان الرائد البحري هارولد ج. ثيريولت Harold J. Theriault الذي وجّه له السؤال الذي عكس واحداً من أكبر الأخطاء الفاضحة في تاريخ البحرية الأمريكية: «من أي سفينة أنتم؟».

جوبه الرد مرة أخرى بعدم التصديق.

سأل ثيريولت: «كم عدد الرجال في الماء؟».

تردّد بلوم. أجل ما هو عددهم؟ هل كان الرجال في مجموعته هم الناجين الوحيدين؟ قال: «لا أعلم».

سئل إن كان يريد أن يأكل أو يشرب.

أجاب بلوم: «نعم، كوباً كبيراً من عصير البندورة».

وفي أثناء ذلك، أخذ إلى فوارة ماء ولم يستطع التوقف عن الشرب ولكن لا زال هناك مكان للعصير. واقترب منه رجل يحمل زبدية كبيرة.

سأل بلوم: «ما هذا؟».

«إنها حساء بندورة ساخن».

حساء ساخن؟ كم مرة وهو في الماء هناك حلم في لمس كأس عصير بارد يقطر داخل حنجرته التي باتت يابسة كالجلد. هل يشرب السمك حساءً ساخناً؟ تناول الزبدية وألقى بها في البحر.

قال: «رجاءً أريد عصير بندورة بارداً».

أراد التيقن من انتهاء هذا الكابوس حقاً.

وفي غضون ذلك، كان قارب السفينة باسيت يقوم بنوع من الخدمة المكوكية وهو يلتقط السباحين الفرادى والرجال على متن الرماث المبعثرة هنا وهناك وينقلهم إلى السفينة ثم يعود ثانية للبحث عن المزيد. وكان أدولفو سيلايا ورتشارد ردمين وهارلان توايبل من بين من أنقذ من الرجال.

كان سيلايا قد أصيب في ظهره حين قفز من الطراد إنديانابولس وقد ساعده رجال السفينة باسيت في الصعود إليها ووضعوه على سرير حيث استلقى في شبه عالم وردي. وكان متعطشاً للحياة الجديدة المثيرة التي تنتظره. لقد برهنت التجربة في الماء ولو بارتياح غريب أن نوعية الرجل لا تحددها الرتبة أو المنزلة أو الثروة أو اللون وإنما طبيعة روحه.

ومع ذلك، ماذا سيقول البحارة الذين قدموا لأخذه إلى الحمام للاغتسال حين يجدون أن بشرته المسودة بالزيت لن تصبح بيضاء أبداً مهما حاولوا كشطها؟

كان الملازم ردمين لا يزال فاقد الوعي حين رفع من رمثه إلى القارب ولكنه استيقظ عندما توقف القارب بمحاذاة السفينة.

تمتم قائلاً: «أين نحن؟» إذ كان يعتقد أنه لا يزال على متن الطراد إنديانابولس: «هل ندخل الميناء في غوام؟».

قال أحدهم مازحاً: «نعم، سيدي».

ولكن راودته شكوك حين وضع على نقالة ورفع على متن السفينة باسيت ونقل إلى حجيرة ذات دعائم بيضاء ناصعة كانت تلمع تحت أنوار مشعة. كان الطراد إنديانابولس نظيفاً ولكن ليس مثل هذا أبداً. نظر إلى أسفل من سريره في الطابق الثاني ورأى رقيباً من مشاة البحرية كان يعرفه.

سأل: «أيها الرقيب، هل نحن في السماء؟».

ابتسم الرقيب وقال: «كلا، سيدي، يا سيد ردمين. لقد أنقذنا».

شعر الملازم ردمين بارتياح. كان القلق قد بدأ يساوره لأن جسمه الملطخ بالزيت وسخ الملاءات الناصعة البياض وليس من المناسب أبداً توسيخ باقي المكان.

أدرك هارلان توايبل أنه لا يزال على الأرض لأنه لم يغمض عينيه منذ الليلة التي سبقت إغراق الطراد. كما شعر أن الله يحابيه ولن ينتزعه قبل فوات الأوان، وإلاَّ هل كان سيظل حياً وهو في حالته هذه؟ لقد فقد أربعين باونداً من وزنه وعندما نقله البحارة على متن السفينة وقصوا سترة النجاة الغرقة بالماء، وجد أنه كان مشلولاً من الخاصرة إلى أسفل، مؤقتاً على الأقل، وكانت هناك شظايا مستقرة في خاصرته نتيجة الانفجارات.

لو أدرك شلله قبل الآن، لربما رفع نفسه على متن رمث مع المصابين الآخرين وفقد الهالة التي لا تقهر التي تميز ضباط أنابولس والتي ألهمت الرجال على البقاء أحياء. لقد عمل مدة أربعة أيام لإنقاذ ما يمكنه إنقاذه من عالمه الصغير. والآن سوف يستريح في اليوم الخامس.

* * *

عند حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، أيقظ رنين الهاتف النقيب غرانوم من نوم أرق. كان المتكلم شخصاً من مكتبه. وردت رسالة من قبطان السفينة باسيت، الرائد البحري ثيريولت الذي أرسلته

قيادة حدود بحر الفلبين في مهمة الإنقاذ ولديه أوامر بإبلاغ القيادة مباشرة عن هوية السفينة السيئة الطالع. لم يشأ غرانوم ورئيسه العميد جيليت أن تمر الرسالة عبر شبكة من الأقنية قبل وصولها إليهما، وكان لديهما سبب وجيه على اعتبار أن رسالة كلايتور السابقة التي تحدّد اسم الطراد إندياناپولس لم تكن قد وصلت بعد.

سأل غرانوم بفارغ الصبر عن فحوى الرسالة.

«الناجون هم من السفينة إندياناپولس التي ضربت بقذائف طوربيد في التاسع والعشرين من تموز / يوليو [هكذا وردت العبارة]. نواصل التقاط الناجين. هناك عدد كبير مصابون إصابات بالغة».

إنها مأساة رهيبة تماماً مثلما ظن هو والعميد.

استيقظ الكابتن مكڤاي بعد طلوع النهار يوم الجمعة وأخذ يتفحص الأُفق بقلق، وكان قد استسلم للنوم بعد ليلة من الإحباط المرير. كانت الطائرات الأشبه بالبراغيث تحوم فوق الماء، ولكنها بدت وكأنها تطير جنوباً مبتعدة أكثر فأكثر في حين كانت رماثه متجهة شمالاً أكثر فأكثر. وبعد ساعات طويلة مرهقة في الجو، سيشعر الطيارون دون شك أنه تم العثور على كل رجل لا زال حياً، وسيعودون إلى قاعدتهم قريباً. وبدا أنه ورفاقه في الرماث هالكون لا محالة.

وإذ تبدّدت كل آماله، قرّر مكڤاي أنه نظراً لعدم وجود أي كان لإرسال إشارة إليه، سوف يستخدم آخر سهم مضيء لديه لإشعال

السيجارة الناشفة الوحيدة في علبة الورق المقوى التي التقطها من البحر في وقت سابق. فليستمتع الأولاد بآخر نفس قبل موتهم. أشعل أحدهم السهم داخل المادة النسيجية في صفيحة الذخيرة، والتي توقفت عن الاشتعال أثناء الليل، وأشعل السيجارة لهيب جديد. وإذ أخذ الرجال يتناوبون في تدخينها، لم تكن ثمة حاجة لإخبارهم بأن مكفاي قد استخدم آخر سهم مضيء لهذا الغرض التافه نوعاً ما.

ورغم ذلك، لم يتخل أوثا آلتون هافنز عن شكر الله. فالوعد هو الوعد على أية حال. سُمع أزيز جديد من فوق. شاهد الرجال طائرة تحلق بالقرب منهم في ما يبدو أنه أشبه بنمط البحث عن ناجين، وأخذوا يلوحون ويصرخون ولكن لم تصدر أية إشارة تؤكد التعرف عليهم. لم تحلق الطائرة فوقهم ولم تهز جناحيها. عليهم إرسال إشارة إلى الطائرة سريعاً ـ ولكن كيف لهم ذلك؟ فقد انطفأت النار في القدر ولم تعد هناك أسهم مضيئة. يبدو أن آخر نفس في السيجارة كان مميتاً. وعندما ابتعدت الطائرة، بدا أن لا مناص من الموت. حتى هافنز كان مستعداً للتسليم باحتمال وجود خطيئة يُحاسب الآن عليها.

ثم عند حوالى الساعة 10,30 صباحاً، شاهد هافنز بقعة في الأفق. ما هي؟

صاح وهو يشير إلى البقعة: «انظروا هناك. هل أهذي أم أن تلك سفينة؟».

أجاب أحدهم: «إن كنت تهذي فأنا كذلك. إنها سفينة وهي متجهة نحونا مباشرة».

نظر الجميع ناحية مكڤاي وبدت ابتسامته تؤكد أنها سفينة، لم يبد عليه مثل هذا السرور منذ الغرق.

قال: «لقد أخبرتكم أننا سننجو».

أحس هافنز ببهجة غامرة فقد استجاب الله لدعواته. وبات عليه الآن التزام بالجزء الخاص به من الوعد الذي قطعه على نفسه والالتحاق بالكهنوت لدى عودته إلى موطنه.

ترنم هافنز شاكراً الله وهو يرفع عينيه إلى السماء.

وخلال فترة قصيرة، كان الرجال العشرة في المجموعة يُسحبون أو يُحملون على متن السفينة رنغنس التي كانت قد وصلت إلى منطقة الكارثة في ذلك الصباح. كان الرائد البحري م. ڤي. ريكتس .M.V Ricketts، قائد سرب الملازم ماركس، هو الذي شاهد المجموعة وهو يطير فوقها قبل وقت قصير. واتجهت السفينة نحو المجموعة مباشرة، بتوجيه من الرادار الذي حدّد بالضبط موقع صفيحة ذخيرة مليئة ببقايا شبه محترقة من واقيات النجاة التي استخدمت لإشعال سيجارة.

نجونا ولكن من المستغرب أن الكابتن مكڤاي لم يعد يبتسم. أجل، كان مسروراً بنجاة رجاله. وأمامه الكثير من حياته هو وحياته

مع لويز. ولكن هل سيعوض حب وتفاني لويز عن الكرب الرهيب الذي يخشى أن يجلبه لعائلته ولنفسه؟

ثبط القلق فرحه، وتعثر وهو يصعد إلى سدة قبطان السفينة، وروى قصته بتلعثم للرائد وليام سي. ماير William C. Meyer، قبطان السفينة رنغنس وكأنه يحاول تطهير روحه من الذنب. ثم أعد ماير تقريراً إلى غوام ولكن مكفاي أضاف كلمات: «لم نكن نبحر بمسار متعرج». اعترض ماير، لأنه ما من سبب لذكر هذه العبارة في الرسالة الأولية، إذ بدون شرح، قد يستخلص مقرّ القيادة الاستنتاجات الخاطئة ولكن أصرّ مكفاي على إضافتها.

وهكذا كان نص الرسالة التي أرسلت إلى القائد العام:

«لدينا 37 من الناجين على متن السفينة بمن فيهم الكابتن تشارلز مكفاي الثالث. يعتقد أن السفينة أصيبت عند الساعة 00,15 وغرقت عند الساعة 00,30.. . 30 تموز / يوليو. كان مسار السفينة مطابقاً لما حدّده مدير الميناء في غوام. السرعة 17، لم نكن نبحر بمسار متعرج، ضربت السفينة من الأمام بما يعتقد أنهما قذيفتا طوربيد أو لغم تلا ذلك انفجار مخزن ذخيرة».

ازداد ألم مكفاي وهو يعيش المأساة مرة أخرى. كل هؤلاء الموتى ـ وكان هو القبطان. ولكن هل ستكون مخاطر البحر أسوأ ما سيواجهه؟

لم يكن الكابتن مكفاي ورجاله الناجين الوحيدين الذين شعروا

بالتخلي عنهم. فقد ظن غايلز ماكوي وفلتون آوتلاند أنه سيتم التخلي عنهما أيضاً. فالسحابة القرنفلية التي أبهجتهم للغاية في الليلة السابقة قد ذابت منذ وقت طويل في غشاوة من اليأس المتجدّد. لو عثرت الطائرة على ناجين، فإنهما لم يكونا من بينهم. ومنذ الفجر، كان الرجلان يشاهدان الطائرات تدور على مسافة بعيدة وكانا يستطيعان حتى تمييز سفن بعيدة ـ ولكن لم تكن أي منها تبحر في اتجاههما.

مرت ساعات وازداد وهن الرجلين. لا ماء ولا طعام. كيف لهما البقاء على قيد الحياة ليلة أخرى؟ وفجأة في وقت متأخر من بعد الظهر، جالا ببصرهما البحر والسماء، ولم يكن هناك شيء سوى عالم مظلل باللون الأزرق ويدندن إيقاع الخلود. لقد ولت الطائرات والسفن.

تأوه ماكوي قائلاً: «لم يرنا الأوغاد. لقد انتهينا».

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر كان الرجلان مستلقيين في الرمث ينتظران مغادرة العالم عندما سمعا فجأة صوتاً مألوفاً ـ هدير محرك أخذ يعلو أكثر فأكثر. حدّقا إلى أعلى وها هي طائرة PBY تحوم فوقهما.

صاح ماكوي: «إن أولئك الأشخاص في الجزء الناتىء من الطائرة يلوحون لنا!».

لا بد وأنه اجتاز اختباراً آخر.

وخلال وقت قصير، برزت سفينة من الأفق. وحين باتت على

مسافة خمسين قدماً من الرمث، ألقى أحد أفراد الطاقم حبالاً لشاغلي الرمث في حين سبح آخر لجر الرمث نحو السفينة. نقل الرجال الثلاثة الفاقدو الوعي على متن السفينة ولكن حين حاول ماكوي وآوتلاند صعود السلم المتدلّي بدون مساعدة، سقطا ثانية على الرمث. وحين جاء رجل لمساعدة ماكوي في الصعود، أحس بأن كبرياءه قد جرح ودفع الرجل بعيداً عنه قائلاً: «أستطيع المشي بمفردي».

لم يشعر قط بمثل هذا الوهن ولكن ذلك جعل التحدي أكثر إثارة، فقد كان من مشاة البحرية على أية حال. سيثبت ذلك لهؤلاء البحارة. وما كاد يخطو خطوة واحدة حتى سقط على وجهه. أحس بالذل ثانية وحاول النهوض ولكن لم تطاوعه عضلات ساقيه المرتخية. اغرورقت عيناه بالدموع وانبطح على معدته وهو يلهث في حالة من الإحباط. حسناً، بقليل من الرشاقة سوف أسبق الطاقم بكامله. قبّل سطح السفينة قبل نقله على حمالة إلى إحدى الحجيرات حيث وضع على سرير، وأحس بمزيد من الخجل عندما أخذ أحد البحارة يسقيه الماء بالملعقة.

وفي أثناء ذلك، توجهت سفينة الإنقاذ ـ رنغنس ـ إلى بيليليو. سوف تصل متأخرة قليلاً، إذ إنها تأخرت عندما التقطت ماكوي وزملاءه في الرمث، آخر الرجال من الطراد إنديانابولس ممن عثر عليهم أحياء. فقد اكتشفوا مباشرة بعد أن صدر الأمر إلى السفينة بالإبحار إلى بيليليو لتوصيل الكابتن مكفاي والناجين الآخرين الذين

التقطتهم. ومع اقتراب حلول الغسق، ستقوم السفن الباقية في المنطقة بمسح شامل بعد حلول الظلام ولكن سيكون الليل حالكاً والسماء ملبدة بالغيوم وغالباً ما يكون الجو عاصفاً وبالتالي سيكون من شبه المتعذر العثور على رمث منفرد.

يبدو أن الله قد أنقذ ماكوي من حافة الهاوية.

في وقت مبكر من ذلك الصباح، صعد الملازم ماركس إلى سدة السفينة دويل، وحيّا الرائد كلايتور بنشاط وقال: «سيدي، أطلب منك أن تدمر طائرتي بنيران المدفعية».

شعر ماركس أن لا خيار لديه. أثناء الليل، جرى نقل 56 من الناجين من الطائرة PBY إلى القارب الطويل الضيق ومنه إلى السفينة دويل. وفي كل مرة كان القارب يمتطي الأمواج العالية ويرتطم بالطائرة، تحدث شقوق وندب تشوه الطائرة ودعامات الجناحين. كما كان الزيت يسيل من شقوق في قاع الطائرة نتيجة الهبوط بينما تمزق النسيج في الجناحين بفعل الجهد الناجم عن سير الرجال عليهما مع أعبائهما المثيرة للشفقة. وهكذا، حين نزل آخر الناجين من الطائرة، تشاور ماركس مع طاقمه وحصل على توافق في الرأي: لا تستطيع الطائرة الإقلاع بسبب ما لحق بها من كسور وصدوع ورضات. أنقذ الرجال ما استطاعوا إنقاذه من معدات وطلبوا من القارب الحضور لنقلهم. ثم لدى الصعود على متن السفينة دويل، تقدم ماركس إلى كلايتور بطلب إطلاق رصاصة الرحمة على الطائرة. وغادرت السفينة

في وقت لاحق من ذلك اليوم إلى بيليليو تحمل 93 شخصاً من الناجين.

وقف ماركس على سطح السفينة متألماً وهو يشاهد السفينة تطلق نيران مدافعها على طائرته العزيزة دامبو. ألم تطع الطائرة كل أمر أصدره لها وأنقذت أرواحاً لا تعد ولا تحصى في مهنتها المميزة؟ حين رفضت الطائرة أن تغرق في بداية الأمر، كان المنظر أشبه بمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام في شخص عزيز ما كان ليموت. وأخيراً، اختفت الطائرة في دوامة من الفقاعات.

نزل ماركس إلى قاعة الجلوس ولم يبتهج هناك بلقاء الطبيب هينز الذي كان راقداً على أريكة. وفجأة، أطلق الطبيب العنان لانفعالاته وتوتره العصبي وأجهش في البكاء وأخذ يروي محنته وهو ينشج.

كان ماركس يجلس أمام طاولة وهو يخط تقريراً رسمياً عن أنشطته. أنصت للطبيب لعدة دقائق ثم قاطعه قائلاً: «أيها الطبيب، لماذا لا تخلد إلى الراحة؟ لقد اختفى صوتك تقريباً. يمكنك أن تروي محنتك غداً».

كلا، عليه التكلم الآن مهما كان منهكاً ونكزاً ومحموماً. وحسبما يروي ماركس لاحقاً: «قبل أن يتمكن هينز من الحصول على الراحة، يتعين أن يروي قصته بكل تفاصيلها المأساوية».

ولكن إذا سعى هينز للحصول على ارتياح في سرد قصته، سعى ماركس للحصول على ارتياح في كسب موافقة هينز على الدور الذي لعبه في القصة. تذكر الطبيب ورجاله وهم يلوحون باهتياج شديد

ويلبطون الماء بأقدامهم وينادونه راجين منه إنقاذهم. كما تذكر قراره في التغاضي عنهم عمداً من أجل إنقاذ السباحين الفرادى، رغم أنه كان سيلتقط لاحقاً أسوأ الحالات في المجموعة. ولما كان قراره هذا يرهق كاهله، سأل هينز: «هل ارتكبت خطأ مروعاً؟ هل كان ينبغي لي أخذ رجالك على متن الطائرة؟».

أجابه هينز بصوت أجش يكاد يزيد عن الهمس قليلاً: «كنت مصيباً. لقد أصبت عندما تغاضيت عنا!».

كان لهذه الكلمات تأثير سحري ولكن حينما عاد لإنهاء كتابة تقريره، ظل يتساءل عن أفضل طريقة لشرح أفعاله. لم يكن يعرف أن لجنة الترميز في بيليليو لم تسلم رسالته الأولى إلى قائد سرية ريكتس، وأنه حين تسلم ريكتس رسالته الثانية التي يعلمه فيها بأنه سيهبط على سطح الماء، ثارت ثائرة الرائد إلى أن علم بحجم المأساة. ثم انضم الرائد شخصياً إلى مجهود الإغاثة.

قال ماركس متردداً: «أيها الطبيب، لم تتمكن طائرتي من الإقلاع هذا الصباح. كانت متضررة للغاية بحيث تعذر عليها الطيران، لذلك تعين علينا إغراقها بنيران المدفعية. علي الآن أن أشرح لماذا هبطت بطائرتي على سطح الماء».

توقف ماركس قليلاً وهو يسعى للحصول على تشجيع من هينز ثم سأله: «أيها الطبيب، هل يمكنني أن أستشهد بقولك إن هبوطي المكشوف في البحر كان ضرورياً لإنقاذكم أنتم؟».